الفصل الخامس

توجهات العولمة نحو الهيمنة "ظواهر تاريخية، ووقائع معاصرة"

د. محمد علي الأحمد(*)

مقدمة

بدأت لفظة العولمة تتردد بكثرة بمعناها الشائع حالياً على ألسنة المثقفين، والمتعلمين، وفي وسائل الإعلام، مع مطلع الثمانينيات من القرن العشرين، مترافقاً مع التغيرات التي طرأت على الساحة الدولية بانتهاء الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفياتي، وتحول العالم من القطبية الثنائية إلى القطبية الأحادية؛ بإعلان الولايات المتحدة الأمريكية نشوء نظام دولي جديد، تسعى من خلاله لفرض سيطرتها على العالم سياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً، ومن ثم ثقافياً؛ ولذلك نظرت الدول والشعوب الأخرى إلى العولمة - بدلالتها المعاصرة- على أنها رديف السيطرة والهيمنة بمفهومهما الواسع المتعدد الاتجاهات، وانبرى الكتاب والمفكرون، والأكاديميون يحللون هذه الظاهرة من جوانبها المختلفة، ويربطون بين تجليات العولمة المعاصرة، وأساليبها، ووسائلها، وتطبيقاتها، وبين ظواهرها عبر الحقب التاريخية الغابرة؛ إذ لا يمكن أن تكون قد برزت فجأة إلى حيز الوجود، واتسعت بهذا الشكل لتصبح تهديداً وخطراً تخشى منه الأمم والشعوب النامية على كياناتها الوطنية، وهويتها الثقافية، لا سيما الأمة العربية الإسلامية التي تأثرت الكثير من دولها بعدوى العولمة، وباتت رهينة تداعياتها، تعاني من آثارها السلبية، وتخضع إرادتها السياسية والاقتصادية للقوى الدولية، وتحولت من رائدة وموجهة للحضارة الإنسانية، إلى متلقية وتابعة للأمم الأخرى، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل هددت حصونها من الداخل؛ بانتقال الغزاة والطامعين إلى مرحلة الهجوم المباشر عليها باسم العولمة، والانفتاح، والتبادل، والحداثة، وغير ذلك من المسميات، ومن ثم الترويج لثقافة جديدة تخترق الحدود، وتهيمن على مقدرات

(*)دكتوراه في التاريخ الإسلامي.

البلدان التي تتغلغل فيها، عبر المسميات الجديدة التي تستتر وراءها؛ فالعولمة -إذن- قديمة متجددة، تتقولب بقوالب محدثة، وتخفي مآربها وغاياتها، وتعرب عن نفسها بواجهات متمدنة وعصرية يجهلها عامة الناس، ولا يعي حقيقتها إلا أولو الأمر، والعلماء، والمفكرون، والأكاديميون الذين يحللون هذه الظاهرة، ويتصدون للتحديات التي تطرحها، كلٌ وفق اختصاصه في الميادين المختلفة، لاسيما الثقافية والفكرية؛ لأن فيها حماية لهوية الأمة وحضارتها من الاختراق الاستعماري الجديد المستتر خلف العولمة؛ حيث تتنوع صور مجابهتها وتتعدد، فمنها: الندوات الفكرية والعلمية التي تنعقد لتدارس هذه الظاهرة، وللبحث في جذورها التاريخية وتطورها المتتابع حتى عصرنا الراهن، ومن ثم مناقشة أفضل السبل وأنجعها لمواجهة مخاطرها، وانعكاساتها على الأمة العربية والإسلامية، والخروج بتصورات ورؤىً قابلة للتطبيق على أرض الواقع، بحيث تسهم في إيقاف هذا الزحف العولمي.

ويهدف بحثنا هذا إلى تعزيز الجهود الرامية إلى دراسة ظاهرة العولمة، وتحليلها من جوانبها المختلفة، والتأكيد على أن العولمة ظاهرة قديمة حديثة متجددة متعددة الوجوه والأشكال، من خلال الشواهد والصور التاريخية، والوقائع الحية الموثقة، وتتبع أوجه التباين والالتقاء بين مفهومي العولمة والعالمية، وتسليط الضوء على التحدي الثقافي للعولمة، وعلى سبل مواجهتها.

ويتضمن بحثنا المحاورالآتية:

الأول: تعريف العولمة ومفهومها المعاصر. الثاني: نشأة العولمة وتطورها ومراحلها. الثالث: العولمة والعالمية وما بينهما من تباين واختلاف. الرابع: إيراد صور تاريخية لظاهرة العولمة مع مثيلاتها من الواقع المعاصر. الخامس: تحديات العولمة الثقافية وسبل مواجهتها. ثم نختم بأهم النتائج والتوصيات التي توصلنا إليها.

أولاً: تعريف العولمة ومفهومها

العولمة هي ترجمة اللفظة الإنكليزية Globalization، وقد استخدم بعض الباحثين مترادفين آخرين لها هما: الكوكبة، والكونية[1]، كما استعملت هذه الكلمة في الفرنسية Mondialisation، انتقالاً بالمعنى من المجال الوطني أو القومي إلى الكوني، ويتضمن في دلالته

(١) الدجاني، أحمد صدقي. "العولمة وأثرها في الدولة والمجتمع" مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية ط١، أبو ظبي، ٢٠٠٢م، ص ١٩.

حيزاً جغرافياً يراد به الفضاء العالمي برمته، وكذلك بُعْداً زمانياً يقصد به حقبة ما بعد القومية(١)، ويأتي اشتقاق لفظة "العولمة" من العالم، وليس من العِلْم، من الفعل عَوْلَم على صيغة فَوْعَلَ، ويقاس عليها استخدام التعبيرات المُحْدثة: قولبة، بلورة، حَوْسبة، على صيغة الاستعمال الآخر لها، وهو كوكبة(٢)، وأشار بعضهم إلى معنى آخر للعولمة يقترب من معنى التدويل international للدلالة على كل ما هو أممي، أو غير قومي(٣). وقال آخرون: إن اشتقاق العولمة من الكونية يراد به الشمولية، أو الشَّوْمَلة، بينما ضيّق آخرون دلالة المفهوم وجعلوه مقابل التخاصية(٤).

تعريف العولمة في الاصطلاح: كثرت التعريفات لها انطلاقاً من النظرة إليها؛ فقد عرفها بعضهم -بالنظر إلى توجهها الاقتصادي: أنها حرية حركة السلع، والخدمات، والأيدي العاملة، ورأس المال، والمعلومات عبر الحدود الوطنية والإقليمية. وهناك من رأى أن العولمة: إقحام الجميع في دخول ترس الآلة العالمية بسبب الثورة الجامحة للمعلوماتية وتطور تقنية الاتصالات(٥).

---

(١) بلقزيز، عبد الإله. "العولمة والهوية الثقافية"، في: ندوة: العرب والعولمة، تحرير: أسامة أمين خولي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٣٠٩. وكذا: السيد ياسين. "في مفهوم العولمة"، مجلة المستقبل العربي (شهرية فكرية) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ٢٢٨، السنة (٢٠)، شباط، ١٩٩٨م، ص ٥. عبد الله، إسماعيل صبري. "العولمة والاقتصاد والتنمية العربية (العرب الكوكبة)"، في: ندوة العرب والعولمة"، تحرير: أسامة أمين خولي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٣٦١ – ٣٦٥.

(٢) الأسد، ناصر الدين. "الهوية والعولمة"، في ندوة: العولمة والهوية، الدورة الأولى، نشر: أكاديمية المملكة المغربية، ط١، الرباط، ١٩٩٧م، ص ٥٧، ٦٣. وانظر: الأسد، ناصر الدين. "نحن والآخر صراع وحوار"، نشر:المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط١، بيروت،١٩٩٧م، ص١٢٦.

(٣) صقر، تركي. "الإعلام العربي وتحديات العولمة"، نشر: وزارة الثقافة، ط١، دمشق، ١٩٩٨م، ص ١٧٧.

(٤) يوسف، بشير شريف، وآخرون. "العولمة الأمركة رؤى ووهم: "دراسة تحليلية"، عمان: دار رؤى، ٢٠٠٤م، ص٩.

(٥) الشيباني، جمال نصر. "العولمة: مفهومها، أسبابها، وآثارها على التجارة الخارجية للدول العربية"، في: مؤتمر العولمة وأبعادها الاقتصادية، تحرير: فليح حسن خلف، جامعة الزرقاء الأهلية، الزرقاء/ الأردن/ ٢٠٠١م، ص ٣٣٠. عبيد، نايف علي. "العولمة والعرب"، مجلة المستقبل العربي، بيروت، السنة (٢٠)، العدد ٢٢١، تموز، ١٩٩٧م، ص ٢٨.

وبالنظر إلى الجهات التي تعمل العولمة لمصلحتها، تعرَّف العولمة تعريفاً ينسجم مع تلك المصلحة؛ فيرى بعضهم أنها تعمل لمصلحة الدول الكبرى بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، أعظم دولة في العالم؛ وبهذا تكون العولمة المدخل للسيطرة المطلقة على العالم عن طريق التجارة، وأن الولايات المتحدة تسعى للهيمنة على مقدراته، خاصة وأنها تتحكم بأكثر من ٦٥٪ من وسائل الإعلام العالمية، ولا أدل على هذا من دعوة الرئيس الأمريكي الأسبق (ريتشارد نيكسون) في كتابه "انتصار بدون حرب" إلى نشر القيم الأمريكية إذا ما أرادت أمريكا أن تصبح زعيمة العالم، والشيء ذاته صدر عن الرئيس (كارتر) عندما قال: إن على الولايات المتحدة - وهي تمتلك هذه النسبة الكبيرة من السيطرة على وسائل الإعلام الدولي- أن تقدم للعالم أنموذجاً كونياً جديداً للحداثة، وهذا يعني نشر القيم والمبادئ الأمريكية، وبما أن الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك وسائل القوة الاقتصادية والعسكرية، فإنها تسخر هذه العولمة لصالحها. وبناءً على هذا تعرّف العولمة تعريفاً أكثر شمولاً بأنها: استحداث نظام عالمي جديد يكون أحادي القطب، تدور في فلكه كافة دول العالم، ويسيطر اقتصادياً، وثقافياً، واجتماعياً، وعسكرياً، وتمثل الولايات المتحدة فيه قلب الرحى[١].

وفي هذا الإطار يحسن التعريج على العولمة الثقافية وتوضيح معناها؛ لأنها تؤثر مباشرة على الهوية الثقافية للشعوب والأمم التي تتجه العولمة نحوها، ومن ثم يأتي تعريفها لتبيان وجه العلاقة الجدلية بينها وبين الهوية الثقافية، من أجل إدراك تأثير أبرز جوانب العولمة على أمتنا، وحضارتنا، ومستقبل أجيالنا، وهو الجانب الثقافي، وتعرّف بأنها: الامتداد الخارجي للثقافة المحلية المعنية إلى أقصى حدودها، أي العالم أجمع، وتصبح الثقافات المختلفة منخرطة في الثقافة الغالبة التي سوف تغطي بعد حين جميع العالم[٢]. أما الهوية الثقافية فهي النموذج الثقافي المكتسب، والموروث، النابع من الثوابت والمتغيرات التاريخية، والطبيعية، والبشرية، والثقافية، التي تتميز بالثبات النسبي، لكن في الوقت ذاته تتميز بالتغير والتطور عبر العصور والقرون، وإن كان تغيراً تدريجياً وعلى جرعات ضئيلة، وليس بالتغير الجذري الحاد[٣].

---

(١) الشيباني. "العولمة: مفهومها، أسبابها، وآثارها"، ص ٣٣٢.

(٢) عبدالله. "العرب والكوكبة"، في: ندوة العرب والعولمة، ص ٣٦١ – ٣٦٥، وانظر: العامري، عصام فاهم. "الثقافة والديمقراطية في مواجهة العولمة"، مجلة شؤون الأوسط، العدد ٨٨، تشرين الأول، ١٩٩٩م، ص ٨.

(٣) سكران، محمد محمد، "العولمة والثقافة العربية، رؤية نقدية"، دار قباء، ط١، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٣١.

ثانياً: نشأة العولمة وتطورها

مصطلح العولمة الذي اشتهر في العقود الأخيرة ظاهرة جديدة مستحدثة، صيغت بلفظة معاصرة؛ للتعبير عن نظام قيمي يهدف في ظاهره إلى إخضاع العالم لهذا النظام في المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية، ويتجاوز كل الحدود، والحواجز، والخواص الجغرافية، والزمنية، والسياسية، والدينية[1]، وفي الوقت ذاته هي تعبير عن واقع قديم كان ملازماً لجميع الحضارات الكبرى، أو الإمبراطوريات العظمى التي استخدمت قوتها لبسط نفوذها، ونشر مبادئها، وتحقيق مصالحها، وفرض سيادتها وجبروتها على أقوام وشعوب أخرى ذات حضارات مختلفة، غير تلك الأجناس التي ضمتها في الأصل حضارتها هي، وكانت مصلحتها السياسية -بالدرجة الأولى- هي الدافع لها، لجمع كل ذلك الشتات من الرعايا المختلفة الأعراق، والثقافات، والحضارات؛ من أجل الهيمنة والسيطرة السياسية، والثقافية، والاقتصادية عليها[2]. فالعولمة بهذا المفهوم قديمة ملازمة للشعوب منذ ما قبل الميلاد، مواكبة للبشرية في جميع عهودها السابقة، وكان لها إسهام بارز في جميع التحولات التاريخية الكبرى في المسيرة البشرية، وتتابعت وتطورت حتى أصبحت اليوم من أبرز سمات العصر الراهن في القرن الحادي والعشرين، بما تعكسه من معايير ومواصفات لمجتمع عولمي شديد التعقيد، يتسم بالتطور التقني والتكنولوجي، ولا يتقيد بالحدود القطرية، ويشمل كافة أنحاء المعمورة[3].

وقد نظر بعضهم إلى نشأة العولمة بمفهومها الغربي المعاصر على أنها واجهة النظام الرأسمالي القائم حالياً على نزعة الهيمنة والاستعمار، وأن هدفها السيطرة على ثروات الشعوب ومقدراتها؛ وإيجاد أسواق استهلاكية للدول التي تتبناها؛ ولذلك فإنها متعددة الأبعاد، تتعدى

(١) عبيد. "العولمة والعرب"، مجلة المستقبل العربي، السنة (٢٠)، العدد ٢٢١، تموز١٩٩٧م، ص ٢٨ – ٢٩.

(٢) الأسد. "نحن والآخر، صراع وحوار"، ص ١٢٣. السعدني، محمود. "العولمة تاريخها ومفهومها"، ترجمة وتحليل لقسم الإسكندر في أوبيس opis، في ندوة: التقاء الحضارات في عالم متغير، حوار أم صراع؟ نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، تحرير: عبادة كحيلة، نشر: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية/ كلية الآداب، جامعة القاهرة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٤٥. كاظم، نجاح. "العرب وعصر العولمة"، ط١، توزيع: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٢٥. بوطالب، عبد الهادي. "لا بد من تكامل العولمة والهوية"، في ندوة: العولمة والهوية، الدورة الأولى للأكاديمية المغربية، نشر الأكاديمية المغربية، ط ١، الرباط، ١٩٩٧م، ص١٢٠–١٢١.

(٣) ياسين، السيد. "في مفهوم العولمة"، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٢٨، شباط، ١٩٩٨م، ص ٩.

الاقتصاد إلى اعتبارات أشمل متمثلة في النظام العالمي الجديد الذي اتسعت دائرته ليشمل العالم كله[1]، وهي تعمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه -هو الولايات المتحدة الأمريكية- على بلدان العالم أجمع، فهي -عدا عن كونها آلية من آليات التطور التلقائي للنظام الرأسمالي- دعوة إلى تبني نموذج معين يمثل أيديولوجيا تعبر عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته، وقد استخدمت للوصول إلى هذا الهدف وسيلتين أولهما: استعمال السوق العالمية أداةً للإخلال بالتوازن في الدول القومية، في نظمها وبرامجها الخاصة بالحياة الاجتماعية. وثانيتهما: إعطاء كل الأهمية والأولوية للإعلام؛ لإحداث التغييرات المطلوبة على الصعيدين المحلي والعالمي؛ لأنها تنظر إلى الجيوبوليتيك، أو السياسة، من زاوية الجغرافية، بمعنى الهيمنة العالمية[2]، وفي هذا الإطار حدد منظرو العولمة مراحل نشأتها ونموها بالمعنى العلمي القائم حالياً، بالمراحل الآتية:

١. المرحلة الجنينية: استمرت في أوروبا منذ بواكير القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي.

٢. مرحلة النشوة: تبدأ من منتصف القرن الثامن عشر حتى عام ١٨٧٠م، ونشأت في هذه المرحلة في أوروبا مفاهيم خاصة بالعلاقات الدولية وبالأفراد- مثل مفهوم الإنسانية-وزادت إلى حد كبير الاتفاقيات الدولية، وبدأت فيها مشكلة قبول المجتمعات غير الأوروبية في المجتمع الدولي، وتنامى فيها الاهتمام بموضوع القومية والعالمية.

٣. مرحلة الانطلاق: استمرت منذ العام ١٨٧٠م حتى العشرينيات من القرن العشرين، وتبلورت فيها المفاهيم الكونية، وبدأت فيها عملية الصياغة الدولية -للأفكار الخاصة بالإنسانية، وظهرت فيها أشكال للمنافسة الدولية مثل -الألعاب الأولمبية، وجوائز نوبل- ونشأت عصبة الأمم التي تطورت لاحقاً لصيغة عالمية أخرى معروفة حالياً هي الأمم المتحدة.

---

(١) الطحان، مصطفى محمد. "العولمة وإعادة صياغة العالم"، مجلة المجتمع إسلامية أسبوعية الكويت، السنة (٢٩)، العدد١٣٠٧ (٧-١٣ تموز، ١٩٩٨م)، ص٥٠ – ٥١.

(٢) الجابري، محمد عابد. "العولمة والهوية الثقافية"، مجلة المستقبل العربي، بيروت، السنة (٢٠)، العدد ٢٢٨، شباط ١٩٩٨م، ص ١٦.

٤. الصراع من أجل الهيمنة: تبدأ من العشرينيات من القرن حتى الستينيات منه، وتخللها خلافات وحروب فكرية حول المصطلحات الناشئة الخاصة بعملية العولمة، كما وقعت فيها الحرب العالمية الثانية، وبرزت منظمة الأمم المتحدة إلى حيز الوجود.

٥. مرحلة عدم اليقين: مطلعها في الستينيات من القرن العشرين، وأبرز أحداثها: غزو الفضاء الخارجي، والصعود إلى القمر، وانتهاء الحرب الباردة، وانتشار الأسلحة الذرية والنووية، وازدياد المؤسسات العالمية بشكل كبير، وظهور حركة الحقوق المدنية، وصيرورة النظام الدولي الجديد واقعاً مشهوداً[١].

وفي إطار الحديث عن مراحل نشوء العولمة قَسّم آخرون هذه المراحل إلى ثلاث:

الأولى: تشمل القرن التاسع عشر المتمثل في عصر القوميات.

والثانية: في القرن العشرين المتمثل في حقبة التكنولوجيا.

والثالثة: في القرن الحادي والعشرين، وأطلق عليه قرن العولمة المكتملة الملامح والقسمات، والمتمثلة في التكنولوجيا، والاتصالات، والإعلام[٢]، ونظر إلى هذا القرن بأنه عصر تجسيد العولمة لنظام عالمي جديد متبلور ومتكون، في عالم ليس له حدود Borderless World، وقد مَيّزَ (تويودا) رئيس مصانع سيارات تويوتا اليابانية هذا العصر بأنه عصر العولمة، ويمثل مرحلة التعاون والتنافس، بينما ميزه (هوتل) أحد مسؤولي شركة (سيمنس) الألمانية بأنه عصر العولمة، تقنية أعقد، ومنافسة أشد[٣].

وفي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى أن بعض المفكرين المعاصرين أرجع التسارع الحاصل في ديناميكية العولمة في العقود الأخيرة، إلى أسباب عدة، هي:

---

(١) ياسين. "في مفهوم العولمة"، ص ١٠ – ١١. خطّاب، جابر علي. "أزمة الإنسان العربي المعاصر في ضوء إشكاليات الانفتاح والعولمة، دار أخبار اليوم، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١١٦-١٢٥. عيسى، نجيب. العولمة: في الخصائص والسمات"، مجلة المنطلق، فكرية إسلامية، بيروت، خريف – شتاء ١٩٩٧ – ١٩٩٨م، العدد ١١٩، ص ١٠٤ – ١٠٥، أمين، جلال، العولمة والدولة، مجلة المستقبل العربي، بيروت، السنة (٢٠)، العدد ٢٢٨، شباط ١٩٩٨م، ص ٢٣ – ٢٥.

(٢) حافظ، صبري. "العولمة والثقافة القومية: آليات الهيمنة والمقاومة"، مجلة إبداع، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، السنة (١٦) العدد ٢ – ٣، شباط- آذار ١٩٩٩م، ص ١١ – ١٣.

(٣) كاظم. "العرب وعصر العولمة"، ص ١٢٥ – ١٢٦.

أ- أسباب سياسية وعسكرية: منها:

١. تفكك الاتحاد السوفياتي، وانهيار الكتلة الشرقية التي تمثل القطب الثاني للتوازن العالمي: حيث انتهزت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الفرصة للترويج للنظام العالمي الجديد، خاصة بعد التقارب الجديد لروسيا والصين مع الولايات المتحدة.

٢. سعي الدول الاشتراكية السابقة للتحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية: الأمر الذي أغرى الولايات المتحدة من أجل قبول انضمام بعض تلك الدول- مثل: بولندا، والمجر، ورومانيا- إلى النظام الدولي الجديد الذي تقوده الولايات المتحدة.

٣. الوجود الأمريكي العسكري في مناطق عديدة من العالم: وقد أسهم هذا الوجود في إعانة أمريكا على فرض النظام الدولي الجديد بتأثير القوة التي تمتلكها.

٤. القضاء على الأنظمة المعادية للولايات المتحدة الأمريكية: وسلكت أمريكا لتحقيق ذلك عدة سبل، قضت من خلالها على الأنظمة التي ترفض هيمنتها على العالم -مثل نظام تشيلي، وهندوراس، ونيكاراغوا- مما أخاف الكثير من الدول، وجعلها تتجنب غضب أمريكا؛ لأنها لا تستطيع الوقوف في وجهها ومجابهتها.

٥. تجاوز أمريكا لخلافاتها مع أطراف دولية معادية لها -مثل فيتنام وكمبوديا- كما سعت إلى خلق تحالفات جديدة وقوية مع كل من باكستان والهند، ومع دول إفريقية، وسعت لاستثمار ذلك؛ لتقوية ظاهرة العولمة اقتصادياً وسياسياً.

٦. الشعور بالخطر الإسلامي: حيث شعرت أمريكا بعد سقوط الاتحاد السوفياتي أن بعض الدول العربية والإسلامية تشكل خطراً عليها؛ لكون هذه الدول -من جهة- تمتلك ثروات طبيعية هائلة، وتهدد مستقبل أمريكا بمنعها عنها، مثل: الغاز، والبترول الموجودين في بعض الدول العربية والإسلامية- كالعراق، وإيران، وليبيا، وسوريا، والسودان- ومن جهة ثانية اعتماد عدد من هذه الدول في تحديها لأمريكا على الإسلام الذي يمثل خطراً على الثقافة الغربية الإباحية المرفوضة من المجتمعات الإسلامية، وتستوحي أمريكا نظرية العداء للإسلام من الفكر اليميني المسيحي المتطرف الذي يعتنقه تيار المحافظين الجدد في أمريكا، ويُنظّر له العديد من الشخصيات المتطرفة، وفي مقدمتهم المستشرق اليهودي (برنارد لويس)، ثم (صموئيل

هنتجتون)، و(وليام بيرل)، و(فرنسيس فوكوياما)، ويعتنقه السياسيون الحاليون في الولايات المتحدة الأمريكية، مثل: (جورج بوش) الابن، و(ديك تشيني)، و(دونالد رامسفيلد)، والكثير من القادة المحيطين بهم، وهؤلاء يرون أن الخطر الإسلامي أشد خطر يواجه الغرب في السنوات القادمة(١).

ب- أسباب اقتصادية. منها:

١. سقوط النظام الاقتصادي الشيوعي، واعتناق الدول الاشتراكية الأوروبية النظام الرأسمالي، بعد تبني تلك الدول لنظم جديدة تنهج النهج الرأسمالي.

٢. سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على معظم المؤسسات الاقتصادية العالمية، مثل: البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية "الجات"، الأمر الذي أدى إلى تحكمها بنظام المساعدات والقروض الدولية التي تمنحها هذه المؤسسات لدول العالم، وبالتالي تملي شروطها على الدول المستفيدة، وتفرض عليها السياسات المتفقة مع نظامها الدولي الجديد.

٣. العجز الذي واجه ميزان المدفوعات الأمريكي، وقُدّر بـ ١٦٠ مليار دولار؛ مما دعا أمريكا لتبني نظام دولي جديد تتحكم بمفاصله الاقتصادية والسياسية، ويساعدها في تخفيف حدة العجز عندها.

٤. ارتفاع أسعار النفط، الأمر الذي جعلها تسعى للسيطرة على النفط العالمي للتحكم بأسعاره، وبمصادره، وبإمداداته إليها.(٢)

ثالثاً: العولمة والعالمية

آثار اشتقاق كلمة العولمة من لفظة العالم التباساً بينها وبين لفظة.. العالمية، وهما لفظتان متباينتان يفترق مدلول كل واحدة عن مدلول الأخرى افتراقاً واضحاً، يذكر هنا؛ لبيان كل منهما، وأوجه التباعد بينهما، لا سيما أن لكل منهما جانباً قد يتوهم بعضهم التقاءه مع الآخر،

---

(١) الشيباني. "العولمة: مفهومها، أسبابها، وآثارها على التجارة الخارجية للدول العربية"، ص ٣٣٣ – ٣٣٥. وانظر: المعوش، سالم. "مخاطر الهيمنة الثقافية: ثقافة القوة أم قوة الثقافة؟" نشر: مؤسسة الرحاب الحديثة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ١٩ – ٢٥.

(٢) الشيباني. "العولمة: مفهومها، أسبابها، وآثارها"، ص ٣٣٥. لاتوش، سيرج. "العولمة ضد الأخلاق"، ترجمه عن الفرنسية: عفيف عثمان، مجلة شؤون الأوسط، العدد ٧١، نيسان/ ١٩٩٨م، ص ٦٥.

وأن ذلك قد يدفع إلى القول: إن معنى العولمة -بوصفه مفهوماً غربياً معاصراً- ومعنى العالمية -بوصفه مفهوماً إسلامياً- ملتقيان، وإن هناك مشتركاً إنسانياً يجمع بينهما، والعالمية صفة إنسانية مرغوب فيها، ومحببة، تميز بها الإسلام بوصفه رسالة إلهية أنزلها الله العالمين والناس كافة، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[سبأ: ٢٨].، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الانبياء: ١٠٧]. والعالمية التي تتسم بها العولمة، مأخوذة من تعريف العولمة، والذي يُستَمد من الأممية والكونية، ومن تعميم مفاهيم العولمة وقيمها بمفهومها الفكري الدولي الكوني، أو بمفهومها الثقافي لشعب ما cultural universalism، بحيث تصور هذه الثقافة بأنها نمت وارتقت وتفوقت، ثم امتدت إلى المستوى العالمي، مع احتفاظها بصفاتها الذاتية وهويتها الخاصة بها، حتى ينبهر العالم بها، ويتحدث عنها، ويخضع لها؛ لأنها متفوقة بادعاء أصحابها أنها الأفضل[1]. لكن هذا الادعاء يبين ضعفه، وينكشف عجزه من خلال مقارنة منطقية بين العولمة والعالمية، يمكن إجمالها بما يلي:

١. تسعى العولمة إلى قمع كل ما هو خصوصي وإقصائه؛ لأنها تمثل إدارة الهيمنة. أما العالمية فهي طموح إلى الارتقاء بالخصوصية إلى مستوى عالمي، وتعميمها.

٢. العولمة تسعى إلى احتواء العالم مع تعظيم خصوصيتها، بينما العالمية تعني الانفتاح على ما هو عالمي وكوني.

٣. العالمية الثقافية أمر مشروع، ورغبة في الأخذ والعطاء، والتعارف، والحوار، والتلاقح، إنها طريق الأنا للتعامل مع الآخر، والاعتراف به، واحترام كيانه، علاقة تقوم على الإيثار بدل الأثرة. أما العولمة فهي إرادة اختراق الآخر وسلبه خصوصيته، ومن ثمَّ تضييع هويته، ومحوه، وتغييبه، وعدم الاعتراف به.

٤. العالمية إثراء للهوية الثقافية. والعولمة تمييع لها واختراق، يريد إلغاء الصراع الأيديولوجي الذي يدور حول تأويل الحاضر، وتفسير الماضي، والتشريع للمستقبل، ثم يحل محله، والاختراق الثقافي يستهدف الإدارة التي يتم بها ذلك التأويل والتفسير والتشريع، يستهدف العقل، والنفس، والوعي الثقافي الذي من خلاله تتعامل مع الآخر وتحاوره. وتسعى العولمة بهذا الاستهداف

---

(١) الشبيني، محمد. "صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة"، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٩. يوسف، بشير شريف، وآخرون. "العولمة، الأمركة: رؤىً ووهم"، دار رؤى، ط١، عَمّان، ٢٠٠٤م، ص ١٧٠ - ١٧١.

لتزييف الوجه الحضاري والثقافي للآخر، أو تشويهه وتحريفه واختطافه، ومن ثم توجيهه الوجهة التي تريدها، وهي الهيمنة الثقافية على الفرد والمجتمع.

٥. العالمية تحمل الفكرة والأيديولوجيا إلى الآخر، وتسعى لتشكيل وعي الآخر تشكيلاً صحيحاً مبنياً على الحوار والتكامل والتعاون. أما العولمة فتسعى لاختراق الآخر من خلال وسائلها الحديثة في السيطرة المعتمدة على الصورة السمعية والبصرية، وتهدف إلى استلاب الوعي الثقافي، وغسيل أدمغة السامعين والمشاهدين، وتسطيح وعيهم، أي جعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي إشهاري يعتمد على الإثارة، ويستفز العواطف والمشاعر، ويحركها، ويجذبها إليه، ويحجب العقل والتفكير والرؤية العميقة للأمور، ويخضع النفس، ويعطل فاعلية العقل، ويكيف المنطق، ويؤثر على القيم والمعتقدات والتصورات عند الإنسان، ويوجه خياله، وينمط ذوقه، ويقولب سلوكه قولبة جديدة، الغاية منها تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والمواد المستهلكة، بطريقة دعائية إعلامية مؤثرة يمكن أن يطلق عليها ثقافة الاختراق[(١)].

٦. تفرض العولمة وتشريعاتها نمطاً من المعايير من وضع البشر يتسم بطابع العلمانية؛ بحيث تخترق كل الثقافات والعقائد، ولا تعترف بها بوصفها نظم حياة تنظم حياة البشر، وتفرض نفسها على أنها أيديولوجيا بديلة؛ كي تهيمن وتلغي هوية الآخر، وتمثل الرؤية الغربية لجوانب الحياة المختلفة، تسعى لتعميمها على دول العالم بالقوة العسكرية والاقتصادية. بينما تقدم عالمية الإسلام للعالم النظام الإسلامي الرباني ليأخذ به بوصفه منهاج حياة بالاختيار والقناعة بعد التفكر والدراسة، وليس بالإكراه، ولا يلغي الآخر، كما أنه لا يستخدم القوة لفرض الهيمنة والسيطرة السياسية كما تفعل العولمة الغربية[(٢)].

ومع إيراد هذه التباينات الواضحة بين مفهومَيِ العولمة والعالمية، وعلى الرغم من التباعد بين مزايا كل منها، لا بد من تبديد الوهم حول إمكانية اشتراكهما في بعض الجوانب التي تندرج تحت مسمى المشترك الإنساني، من خلال توضيح فكرة الأنسنة التي تحملها العولمة، وما يقابلها في عالمية الإسلام من نزعة إنسانية، ومن توجيه هذه النزعة بوصفها عناصر عالمية الإسلام، نحو

(١) الجابري. "العولمة والهوية الثقافية"، مجلة المستقبل العربي، ع ٢٢٨، شباط ١٩٩٨م، ص ١٧ – ١٨.

(٢) عبد الحميد، طلعت، وآخرون. "تربية العولمة وتحديث المجتمع"، دار فرحة للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٢٧. وانظر: الدجاني. "العولمة وأثرها في المجتمع والدولة"، ص ٢٦ – ٢٧.

الفاعلية الإيجابية في حمل الإسلام إلى العالمين، من أجل الهداية والتعارف، ومن ثم للتفاعل والتعاون الحضاري.

وهنا يلاحظ أن دعاة العولمة يحاولون خلط المفاهيم لترويج بضاعتهم، مفسرين أهدافهم بأنها ترمي لجعل الإنسان في حالة من الأمان والطمأنينة، والوفر المادي الذي يأتيه من أطراف الكون كله، وجعله أكثر سعادة من الناحية النفسية؛ لأن الإنسان أصبح سيد العالم، وهو يستثمره إلى أقصى الحدود[1].

والواقع أن هذا الطرح لم يجلب السعادة للإنسان، بل إن ما يفرض باسم العولمة ليس عالمياً أو إنسانياً لإسعاد الإنسان، بل هو الرؤية الغربية الرأسمالية التي تُسَخِّر المنظومة الإنسانية لخدمة أصحاب رؤوس الأموال، ولنشر ثقافتهم القائمة على الهيمنة والسيطرة على الشعوب الأخرى[2]. كما أن حديث دعاة العولمة عن المشترك الإنساني وعن حقوق الإنسان العالمية، إنما هو أفكار مجردة ومبهمة، وينتابها التناقض بين الشكل التنظيري والواقع العملي الملموس؛ حيث يُظهر الأوروبيون ومعهم الولايات المتحدة الأمريكية غضباً عند الحديث عن انتهاك حقوق الإنسان في هذا الجزء أو ذاك من العالم، ويلوذون بالسكوت والصمت الذي يصل لدرجة الخَرَس عند انتهاك هذه الحقوق هناك في الجزء الآخر من العالم؛ فلا يتحدث أحد أبداً من حاملي لواء العولمة عن حق الإنسان في الطعام، أو المأوى، أو حتى العمل، أو التعليم، أو الصحة، فضلاً عن حقه في مستقبل أفضل، ولا عجب من ذلك؛ فشوارع أكثر البلاد ثراءً وديمقراطية ممتلئة بالجوعى، والمشردين، والعاطلين عن العمل، واليائسين من المستقبل، وهذا يعني أن استخدام العولمة لحقوق الإنسان هي قضية حق يراد بها باطل بشكل يفضح انتقائية دعاتها، وازدواجية معاييرهم في الحديث عن حقوق الإنسان، وأن هناك دائماً أجندة مضمرة بين تحقيق مصالح القوى المهيمنة على العولمة، والسكوت على أبشع انتهاكات حقوق الإنسان[3]. إنها أجندة النظام العالمي الجديد الذي يتخذ من العولمة عراباً وواجهة له في سيره نحو أهدافه، هذا النظام تتزعمه وتديره الولايات المتحدة الأمريكية، وقد أصبح بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، نظاماً عادلاً يدعو إلى الديمقراطية، بعد أن كان قبل سنوات يدك قرى فيتنام

---

(١) صقر. "الإعلام العربي وتحديات العولمة"، ص ١٧٨.

(٢) الدجاني. "العولمة، رؤية تحليلية لواقع الظاهرة ومستقبلها"، ص ٢٦ – ٢٧.

(٣) حافظ. "العولمة والثقافة القومية: آليات الهيمنة والمقاومة"، ص١٤ – ١٥.

بالأسلحة الفتاكة بما فيها الأسلحة النووية، وهو يتابع بإعجاب وتأييد شديدين الجرافات الإسرائيلية وهي تهدم بيوت الفلسطينيين على رؤوسهم، وتقصفها بالمدافع والدبابات(١)! فعالمية العولمة المتجلية بالنظام العالمي الجديد، هي صورة الهيمنة والاستعباد وإخضاع الآخر لمعاييرها المزدوجة باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان، وهذه العالمية مرفوضة وباطلة في الرؤية الإسلامية، إن كانت تتسق في جوهرها -ولو من الناحية الشكلية- مع هذه الرؤية، بما تقوم عليه فكرة العولمة من إطار أوسع يمكن أن يضم البشر جميعاً، وهي هنا تتفق مع ما جاء به الإسلام الذي يحمل دعوة للعالمين في إطار عام يجمع كل التنوع القومي والعرقي والاثني، فما يحدث الآن في العولمة يعطي -من حيث الشكل- الفكرة نفسها التي تقبل بإطار عام يضم الجميع، لكنه يبقي الاختلاف الجوهري على مستوى الفكر والأيديولوجيا قائماً، وعلى مستوى الآليات في الوصول إلى فكرة العالمية.

هذا على الصعيد الفكري والنظري، أما على الصعيد العملي: فالعالمية وسيلة في نظر الإسلام لجمع الناس، وإدخالهم في إطار إنساني يقوم على الرحمة، والعدالة، والتساوي، وتحقيق تكافؤ الفرص بين الجميع، دون الهيمنة على سائر الناس، بل يجعل كل من يدخل في عالمية الإسلام جزءاً من أمة الإسلام؛ بحيث تتوسع هذه الأمة لتستوعب العالمين(٢) الذين أرسل الله نبيه محمداً ﷺ بالرسالة الإسلامية رحمة لهم،﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الانبياء: ١٠٧]، في حين أن من يبشر بالعولمة، ويقدمها للناس باسم الانفتاح والتعاون الدولي، إنما يكرس هيمنة هذه الدولة المبشرة بالعولمة على دول العالم واقتصادياته، وفرض ثقافتها بالقسر والإكراه على الآخرين(٣)، والأخذ بنمط الحياة الأوروبية والغربية، بل يضيق الأمر أكثر عندما يدعو أوصياء العولمة إلى ضرورة الأخذ بنمط الحياة الأمريكية بكل مقتضياتها، حتى لو أدى ذلك إلى الفجور،

(١) المسيري، عبدالوهاب. "النظام العالمي الجديد :عولمة الالتفاف بدلاً من المواجهة"، في: سلسلة كتاب المعرفة (رقم ٧)، ص ٦١. حارب، سعيد. "الثقافة والعولمة"، دار الكتاب الجامعي، ط١، العين / دولة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠م، ص ١١ – ١٢.

(٢) العبدلاوي، إدريس العلوي. "أسس الحوار بين الأديان"، في ندوة: العولمة والهوية، الدورة الأولى للأكاديمية المغربية، نشر: الأكاديمية المغربية، ط١، الرباط، ١٩٩٧م، ص ١٣٤ – ١٣٧.

(٣) مصطفى، نادية. "فرق بين العالمية في الفكر الإسلامي .. والعولمة في الفكر الغربي"، مجلة المجتمع، الكويت، السنة (٢٩)، العدد ١٣٢٢، ٢٠ – ٢٦، أكتوبر / تشرين الأول ١٩٩٨م، ص ٥٠.

والتحلل الخلقي، وسب الأنبياء، والكفر بالله -سبحانه- مع التلويح باستعمال القوة العسكرية، وفرض الحصار الاقتصادي العسكري لكل من يتمرد على سلطان العولمة، أو على النظام العالمي الجديد[1]!

بذلك يمكن القول: إن العولمة تعني الهيمنة الكاملة على الثقافة وخصوصيتها، وعلى حق الشعوب في تقرير مصيرها السياسي والثقافي، وفي تحديد هويتها الثقافية - بالضغط والإكراه، بعكس عالمية الإسلام التي حدد الله -عز وجل- إطارها العام، وأقامها على عدم الإكراه، وعلى حرية الاختيار للنظام السياسي والثقافي والاجتماعي، حتى في العقيدة والدين؛ ويشرع الله عز وجل في القرآن الكريم: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ومن هنا فالعولمة بعيدة كل البعد عن فكرة العالمية، وإشراقها المتمثل في انخراط الدول طواعية فيها دون التنازل عن سيادتها الوطنية، أو خصوصياتها المذهبية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية، ويتجلى هذا البعد في دعوتها الدول والأمم والشعوب إلى التخلي عن ذاتها؛ لتصبح تابعة ذليلة في كل شيء لسيد النظام العالمي الجديد أمريكا على وجه الخصوص، وللغرب بشكل عام[2].

وأخيراً فالعولمة بتوجهها لفرض نمط أو نموذج معين على دول العالم، تخالف الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، وتخالف النواميس الكونية القائمة على التدافع والتنافس بين بني البشر؛ لإعمار الكون، ومن خلال سعيها للقضاء على الخصوصية، وعلى التنوع والاختلاف بينهم؛ إذ إنّ هذه الصفات هي من عناصر العالمية الإسلامية التي احترمت خصوصيات الشعوب، وتميزها في عاداتها، وطبائعها، وأنماط حياتها، وفتحت الباب أمامهم واسعاً للتنافس في ميادين العلم والإبداع والإنتاج، دون السعي لقولبتهم بقالب معين. وهذه الحرية في التنافس القائم على تكافؤ الفرص، هي التي جعلت علماء المسلمين من كافة الشعوب والأجناس التي اعتنقت الإسلام- يتصدرون قائمة المبدعين والمتميزين والعباقرة في العلوم المختلفة، ولولا قانون المدافعة والتنوع والاختلاف بين بني البشر[3] لفسدت الأرض، ولتوقف الإبداع الإنساني. وفي الوقت ذاته يترك قانون التنوع والمدافعة سبيل الصراع بين الخير والشر، وبين الحق والباطل قائماً؛ من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل؛ كي يعمر الكون، وتستمر عجلة الحياة الإنسانية في

---

(١) إمام، زكريا بشير. "في مواجهة العولمة"، دار مجدلاوي، ط١، عمّان، ٢٠٠٠م، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) إمام. "في مواجهة العولمة"، ص ٢٠٦.

(٣) يوسف وآخرون. "العولمة، الأمركة: رؤىً ووهم"، ص ٩.

اندفاعها نحو الأمام للبناء والازدهار، ولولا ذلك لارتفع شأن الباطل، ولعم الفساد أرجاء المعمورة، وفي ذلك اختلال لنظام الكون، لكن الله يأبى ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

رابعاً: صور تاريخية ومعاصرة لهيمنة العولمة

نظر بعضهم إلى العولمة على أنها تطور طبيعي للحضارة منذ فجر التاريخ حتى اليوم، ونظر إليها آخرون على أنها صورة من صور الهيمنة الاستعمارية، عبر سعي الإمبراطوريات العظمى التي استخدمت قوتها العسكرية خلال عصور التاريخ لبسط نفوذها ونشر مبادئها، لكن الانتصار العسكري لقوى العولمة لا يعني بالضرورة الانتصار السياسي والاقتصادي والثقافي، وإن بدا ذلك للعيان أول وهلة[1]، والشواهد التي توضح ذلك كثيرة في كل دورة حضارية للأمم السابقة؛ لأن كلاً منها عندما تستخدم جيوشها العسكرية لاحتلال بلاد أخرى، وتوسع رقعة هيمنتها وسيطرتها، فإنها -فضلاً عن السيطرة العسكرية- تفرض سيادتها على الشعوب الأخرى؛ ليكون ذلك مدخلاً طبيعياً لنشر أنظمتها في الحكم، وأنماط حياتها السياسية، والاجتماعية، والثقافية. وهذه هي أهداف العولمة؛ فالرومان عندما أنشؤوا إمبراطوريتهم، ووسعوها بالغزو والحروب، وضعوا نصب أعينهم تطويع الأمم التي استعمروها ثقافياً واقتصادياً، والآثار العمرانية المنتشرة في بلاد الشام، وفي مصر، والشمال الإفريقي، وغيرها من المناطق التي كانت مسرحاً للانتشار الروماني- صور حية تحكي تجربة الآداب الرومانية في هذه البلدان. والشيء ذاته ينطبق على الإمبراطورية البريطانية، حين عملت على ترسيخ قيمها، وتقاليدها، وثقافتها في الأقطار التي احتلتها وهي في أوج فتوّتها إلى مطلع القرن العشرين، حتى أطلق عليها لقب الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس[2].

وهكذا يتجدد التأثير العولمي في كل حلقة من حلقات التاريخ، ويتتابع النَّسَق الذي ينظم عقد الإمبراطوريات الكبرى، ويؤكد استبداد نزعة السيطرة والهيمنة بهؤلاء الحكام والغزاة، لطبع مؤشرات حضارتهم الثقافية، والسياسية، والاجتماعية في ذاكرة الشعوب الأخرى.

(١) المعوش. "مخاطر الهيمنة الثقافية"، ص ١٧.
(٢) الأسد. "نحن والآخر، صراع وحوار"، ص ١٢٣.

وهذه صور من فترات تاريخية قديمة وحديثة تبرهن أن العولمة المعاصرة هي صورة جديدة من صور الاستعمار، فيها كل ما في الاستعمار القديم من حضارات، ولها ما لسلفها من الأهداف والغايات، غير أن الاستعمار الحالي طوَّر نفسه مستغلاً آليات حديثة، ومستفيداً من دروس الماضي، ومن خبرات الاستعمار القديم، ومن أساليبه، ووسائله[1]:

١. التوسع اليوناني بقيادة الإسكندر المقدوني (Alexander):

يروي المؤرخون أن الإسكندر بن فيلفوس المقدوني الكبير (Alexander the Great) ولد في مقدونيا من بلاد اليونان في العام ٣٥٦ ق.م، وأنه عاش حياةً مليئة بالمغامرات والحروب لدرجة تشبه الأسطورة،، وأنه انطلق من بلاده شرقاً وغرباً فاتحاً البلاد، حيث فتح بلاد الصين، والهند، ومصر، والشام، وبلاد فارس، وأنه حاول دخول أوروبا فاتحاً، وكل هذا في فترة قصيرة لا تزيد على ثلاثة عشر عاماً بنى خلالها اثنتي عشرة مدينة، حتى وصف بالبطل الذي وصل إلى أطراف الأرض[2]، وقيل: إنه توفي مسموماً عام ٣٢٣ ق.م، ودفن في الإسكندرية، وهي إحدى المدن التي بناها[3].

وذهب المؤرخون القدامى والمعاصرون مذاهب في تأويل مسلكه السياسي والعسكري؛ فالطبري يشير إلى أن سبب حملته على بلاد الروم هو تباطؤ ملك الروم عن أداء الأتاوة التي يدفعها سنوياً لمملكة الإسكندر، وأن جد الإسكندر المسمى دارا، خاطب ملك الروم: إنك إن لم تؤدّ خراجك الذي أبطأت علينا به نابذناك الحرب[4]. إذاً العامل الاقتصادي وروح الهيمنة الاستعمارية سبب أول من أسباب حروب الإسكندر وحروب أجداد؛ لأن العولمة في أصلها اقتصادية، والاقتصاد مقصود لذاته فيها[5]، وسبب آخر لهذه الحروب هو الهيمنة السياسية؛ حيث رثى فلاسفة اليونان الإسكندر بكلمات وصفوا فيها غرور العظمة المتمكن من نفسه وشخصيته،

---

(١) يوسف وآخرون. العولمة، الأمركة: رؤىً ووهم، ص ١٨٥.

(٢) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧م، ١/ ٥٧٣ – ٥٧٩.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، ترجمة: إبراهيم خورشيد وآخرين، ٢/ ١٢٦-١٢٨.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ١ ص ٥٧٧.

(٥) الأسد. نحن والآخر: صراع وحوار، ص ١٢٦.

وبينّوا أن حب السيطرة والسيادة عنصر رئيس من العناصر التي تدفعه للمغامرة والحروب[1]، وأنه ابتلي بجنون العظمة؛ بتأثير انتصاراته ومغانمه، ولم يدفعه إلى مغامراته تلك سوى رغبة عارمة طاغية في فرض شخصيته على الآخرين، وفي الحفاظ على سمعته بأنه القائد الذي لا يقهر ولا يعرف المستحيلات[2]، بل زاد بعضهم أنه لم يكن له أي برنامج من مغامراته إلا الغزو، وأن الاكتشاف والمعرفة والثقافة ليست من أهدافه[3].

وتشير دراسات تحليلية لشخصية الإسكندر، ولمشروعه العسكري في فتوح الشرق والغرب، نشرت عن علماء التاريخ القديم والحضارات- أن الإسكندر استعمل الحيلة السياسية البارعة لمواجهة التمرد العسكري الذي واجهه من جنوده على أرض إحدى المعارك في جنوب آسيا- قيل: إنها الأرض الأفغانية الباكستانية- وأنه قدم لهؤلاء الجنود والضباط المتمردين عليه وعوداً تتضمن مبادئ إنسانية راقية، تقوم على تقدير العمل والعطاء، ولا يداخلها أساس عرقي أو قومي، وهي قيم ومبادئ أخلاقية، وأنه استخدم -أيضاً- الوسائل السلمية لاحتواء التمرد عليه، معتمداً على الحوار والمفاوضات مع الجنود والضباط، بدلاً من القمع واستعمال القوة لإنهاء تمردهم. وتبين الدراسات المشار إليها أن أفكار العولمة القديمة حاضرة في ذهن الإسكندر، وأنه طرحها على شكل حلول مباشرة في تعامله مع الأزمة التي واجهها مع جنوده، وكان الطرح بقالب علمي أضفى عليه الإسكندر طابع الأخوة والمساواة الإنسانية!! وهذه الأفكار يتكرر طرحها من دعاة العولمة على الدوام عندما يواجهون المشكلات نفسها[4].

٢. نابليون وحروبه في الغرب والشرق:

تحرك (نابليون بونابرت) في حملته المشهورة من ميناء طولون الفرنسي الواقع في الطرف الشمالي الأوروبي على البحر المتوسط إلى مصر، في عام ١٧٩٨م، وكانت الحملة معبأة تعبئةً

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ٢/ ١٢٨.

(٢) صفل، محمد أسد الله. "الاسكندر المقدوني الكبير" دار النفائس، ط١، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٨ – ١٠.

(٣) تارن، و.و.، "الاسكندر الأكبر" ترجمة: زكي علي، نشر: مركز كتب الشرق الأوسط، طباعة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٨٩ – ١٩٠. فوكس وبيرن، سلسلة مشاهير الشرق، "الاسكندر المقدوني" ترجمة: مطابع المستقبل، نشر: مطابع المستقبل، بيروت، ص ١٢٦.

(٤) السعدني. "العولمة، تاريخها، مفهومها، تحليل قسم الإسكندر في أوبيس opis" في: ندوة التقاء الحضارات في عالم متغير، تحرير: عُبادة كحيلة، ص ٤٨ – ٥٠.

عسكرية كاملة، ومجهزة بكافة المعدات الثقيلة من مدافع وراجمات، إضافة إلى بعثة علمية تضم علماء من كل التخصصات. ونزلت الحملة على الشواطئ المصرية عند الإسكندرية في ٢٥ محرم ١٢١٣هـ/ الموافق ٩ تموز ١٧٩٨م.

وما يراد هنا من ذكر هذه الحملة هو إبراز الأهداف التي أرادها نابليون منها، وهي أهداف العولمة ومقاصدها عبر التاريخ، وتظهر عند دراستها وتفحصها أنها الأهداف الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، للاستعمار؛ فما دعا إليه نابليون ظاهرياً هو نشر قيم الثورة الفرنسية ومبادئها التي تبشر بالحرية، والعدالة، والمساواة[١]، ثم سعى جاهداً لإخفاء وجهه الاستعماري، وغاياته الحقيقية من الحملة، وتزيينها بقشرة رقيقة من قيم السلام، والمحبة، والحرية، وعمل على تقديمها للشعب المصري بدهاء ومكر، محاولاً خداعه وتهدئته، كي لا يتصدى للفرنسيين قبل نزولهم إلى الشواطئ المصرية. وقد أذاع نابليون منشوراً أعدّه بإتقان في سفينة القيادة التي يركبها، والمسماة (لوريان)، وترجمه إلى العربية مستشرق مرافق له يدعى (فينتور دو بارادي)، وهو على علم جيد بشؤون مصر، ويتقن العربية من خلال معيشته في مصر فيما مضى لسنوات عدّة. وجاءت لغة الخطاب سهلة خداعة: يُظهر فيه التودد للمصريين، ويتكلم بعبارات إسلامية مبنية على الفضائل، والأخلاق، والمحبة، والسلام، وأن الفرنسيين مسلمون جاءت حملتهم بزعامة بونابرت لإصلاح أحوال الأمة المصرية، وإزالة ظلم المماليك عنهم، الذين حكموهم بالطمع والبعد عن الفضائل، وأن أرض مصر ليست ملكاً للمماليك حتى يستمروا في حكمها، وإن كانت كذلك فليظهروا الحجج التي تثبت ذلك. وقد افتتح نابليون منشوره الموجه إلى أبناء مصر بـ: "بسم الله الرحمن الرحيم"، ثم يخاطب القضاة، وعلماء المسلمين، وأئمتهم، وأعيان البلاد بأن يقنعوا الشعب بالسكوت عنه وعن حملته، لأنه جاء ليثبت لهم حسن إسلامه، وأنه يجاهد باسم الإسلام ملة الكفر، وأنه نزل روما عاصمة البابوية، وخرب فيها كرسي البابا، وأذله؛ لأنه دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام![٢].

فهذا الخطاب العولمي المدبج لم يتمكن نابليون -بكل ما أوتي من مهارة ودهاء في إعداده، ومن خبرة سياسية في اختيار كلماته بدقة وعناية- من الاستتار خلفه أكثر من أيام معدودة؛

(١) المعوش. "مخاطر الهيمنة الثقافية"، ص ١٨، ٢٣.

(٢) الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت ١٢٣٧ هـ / ١٨٢٢م). "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، تحقيق: عبد العزيز جمال الدين، نشر: مكتبة مدبولي، ١/ ٦٤ – ٦٩.

حيث كشفت سوءات الخطاب اللغوية والإعلامية نوايا نابليون وحقيقته، وعرف الناس أنه جاء مستعمراً غازياً مخرباً، يستخدم الأديان والحضارات لكسب عواطف الناس، وليسوغ أفعاله؛ ليصل إلى أهدافه الحقيقية؛ ولذلك سرعان ما انقلب على مصر وأهل مصر، وقصف القاهرة بالمدافع والراجمات، وشن حملة واسعةً على المدن والقرى والأرياف؛ لتدمير الاقتصاد،÷ ونهب خيرات البلاد، وسرقة كل ما يمكن سرقته من البيوت والمحلات والمزارع، من أمتعة وخيرات وسلاح...، ثم ركز اهتمامه بالتفتيش عن آثار البلاد، ودفائنها، ونفائسها، ومخطوطاتها الأثرية والعلمية، كما أنه حمل معه إلى باريس -عند عودته بعد فشل الحملة- خيرة الصناع والمهرة في كافة المهن، وأجرى دراسات عن أحوال البلاد وأوضاعها الداخلية[١].

وعلاوة على ما فعلته العولمة الفرنسية من خلال حملة نابليون على مصر، فإنها تمددت شرقاً وغرباً باسم نشر قيم الثورة الفرنسية ومبادئها، وعصفت الحروب النابليونية بأوروبا خلال عقد ونصف من الزمان[٢]، ثم ما لبثت فرنسا -بعد أقل من خمسين عاماً، وباسم المبادئ والقيم نفسها- أن بدأت استعماراً جديداً باتجاه إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية، ولم تهدإ الحروب بين فرنسا التي تمسك بزمام النظام الدولي آنذاك، وخصومها، إلا مع بدء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، التي انتهت بخسارة أوروبا لزعامتها على العالم، لصالح قوتين برزتا جديداً بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، هما أمريكا والاتحاد السوفياتي[٣].

٣. صور من العولمة في العصر الحديث "الاستعمار الحديث، التبشير":

بعد انتهاء الحروب الصليبية وفشلها في السيطرة الثقافية على العالم الإسلامي، بدأت العولمة باتجاهاتها المختلفة دورةً جديدةً. ولم يقتصر الغزو الثقافي العولمي الجديد الذي تقوم به أوروبا والغرب في مطلع العصر الحديث على العالم الإسلامي وحسب، بل تعداه إلى إفريقية وأمريكا

(١) الجبرتي، عبدالرحمن بن حسن. "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس"، تحقيق: عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، دار الكتب والوثائق المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٢-٤٢.

(٢) المعوش. "مخاطر الهيمنة الثقافية"، ص ١٨ – ١٩.

(٣) المعوش. المرجع السابق، ص ١٨، ٢٣، ٨٥.

اللاتينية، وإلى كل منطقة في العالم يحقق الغرب فيها مصالحه؛ باستنزاف مواردها وثرواتها، وجعلها سوقاً استهلاكية لمنتجاته بعد الثورة الصناعية الأوروبية، ومن صور هذه العولمة:

أ- الغزو الثقافي والعسكري للقارة الأمريكية:

تمكن الأوروبيون الذين هاجروا في مطلع العصر الحديث من بريطانيا، وفرنسا، واسبانيا، والبرتغال، وغيرها من دول أوروبا باتجاه القارة الأمريكية قبل خمسة قرون -من احتلال هذه المنطقة المكتشفة حديثاً، وتقتيل عشرات الملايين من الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين، وتهجيرهم، والشيء ذاته فعله الأوروبيون باستراليا: هَجّروا سكانها الأصليين، ومارسوا ضدهم أبشع أنواع الاضطهاد، ثم استوطنوا بلادهم، وتغلبوا عليهم، وقهروهم سياسياً وثقافياً، وهزمت ثقافة العولمة ثقافتهم في هاتين المنطقتين من العالم[١].

ب- التبشير الاستعماري في إفريقية:

يعد التبشير إلى جانب الاستشراق، أهم وسائل العولمة الأوروبية الحديثة للسيطرة على العالم، ويعرف بأنه: الجهود المبذولة من الكنائس العالمية للدعوة إلى المسيحية. وفي العصر الحديث كرست الكنائس المسيحية جهودها لتكون وسيلة الاستعمار الأوروبي في نشر ثقافة العولمة للهيمنة على الشعوب المختلفة في إفريقية وآسيا، ودول العالم الإسلامي، وضمان خضوع هذه الشعوب للمستعمرين، وتطويعهم لهم باسم تعاليم الكنيسة[٢]، والمبشرون هم عيون الاستعمار وطلائعه الممهدون له[٣]، يقول المبشر الأمريكي (جاك مندلسون): لقد تمت محاولات نشطة لاستعمال المبشرين لا لمصلحة المسيحية دائماً، بل لخدمة الاستعمار. وفي مؤتمر للطلبة الإفريقيين في الولايات المتحدة الأمريكية عقد في جامعة شيكاغو عام ١٩٥٨م، قال الدكتور (ألكسندر أوهين) من (توجولاند) للمندوبين: إن اكتشاف استعمار الإسبان للأمريكيين وافق عصر النهضة حين كانت قوة المال حقيقة فوق كل شيء، ولم يستطع المبشرون الذين تابعوا الغزاة أن يحموا السكان الأصليين من قسوة الاستغلال، وقد سافر (لاس كاساس) -وهو من

---

(١) البازعي، سعد. "المثقفون والعولمة: الضرورة والضرر"، ص ٣٣. وأمين، جلال. "العولمة هي التكنولوجيا والتكنولوجيا هي الخطر"، ص ٩٧، في كتاب: سلسلة المعرفة (رقم٧). وكاظم. العرب وعصر العولمة، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) انظر: الكيالي، عبد الوهاب. "موسوعة السياسة"، نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ١٩٧٩م، ١/ ٦٨٣-٦٨٤.

(٣) السيد صالح، سعد الدين. "احذروا أساليب الاستعمار الحديثة في مواجهة الإسلام"، نشر: مكتبة الصحابة، ط ١، الشارقة / دولة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٨م، ص ٥٠ - ٥١.

أشهر المبشرين- عدة مرات إلى أوروبا؛ ليفضح لمدريد سوء تصرفات المستعمرين، وقد كاد مواطنوه أن يشنقوه، كما اتهموه بأنه كان (لوثرياً) مستتراً[1]. فهذا النص واضح الإشارة إلى فعل المبشرين في خدمة أهداف العولمة الأوروبية والأمريكية، وفي تهيئة الشعوب المغلوبة في إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية، وإخضاعها باسم الكنيسة والتبشير بالمسيحية للاستعباد الأوروبي والأمريكي، وهذه الحقائق يصرح بها قادة أوروبا ودعاة العولمة من السياسيين؛ إذ يقول ملك فرنسا: "الدين ضروري لكل الناس، ولكنه أكثر ضرورة في المستعمرات الآهلة بالعبيد"، أما (نابليون) الأول فيقول في جلسة مجلس الدولة في ٢٢/ ٥/ ١٨٠٤م: "إن في نيتي إنشاء مؤسسة الإرساليات الأجنبية؛ فهؤلاء الرجال المتدينون سيكونون عوناً كبيراً في آسيا وإفريقية وأمريكا، سأرسلهم لجمع المعلومات عن الأقطار. إن ملابسهم تحميهم وتخفي أية نوايا سياسية أو اقتصادية"[2].

وصورة أخرى لهدف العولمة في استعباد الشعوب في مطلع العصر الذي يطلق عليه دعاة التغريب في البلاد العربية والإسلامية، عصرَ النهضة وعصر التنوير، وهو في الواقع عصر الاستعمار الحديث لهذه البلاد ولإفريقية وللشعوب النامية في آسيا وأمريكا اللاتينية. هذه الصورة يبرزها (ب. شانجو ماكيو) ممثل اتحاد طلبة شرق إفريقية ووسطها في بريطانيا أثناء خطاب له في مؤتمر الطلبة الأفارقة في لندن سنة ١٩٦٠م، ويظهر خطابه المرارة التي يشعر بها الأفارقة من علاقة المسيحية التاريخية بالاستعباد، والاستعمار، والعنصرية، حين يقول: "إن كل أمة في العالم قد ضحكت علينا فعلاً... كنا موضع احتقار، وعلمنا كل نوع من الإساءة، والإذلال، وسوء المعاملة الوحشية ممن يطلق عليه اسم العالم المسيحي المتمدن... إن الأرباح من العبيد الإفريقيين بنت قصوراً وكنائس ومدناً... إننا جميعاً عبيد؛ لأن الملايين من شعوبنا ما زالت تتألم من إذلال السيطرة السياسية، والاقتصادية، والروحية!"[3].

---

(١) مندلسون، جاك. "العرب والله وجوجو : الأديان في أفريقية المعاصرة"، ترجمة: إبراهيم أسعد محمد، دار المعارف، ط١، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) مندلسون. المرجع السابق، ص ٢٠٩.

(٣) مندلسون. المرجع السابق ، ص ٢١٠.

٤. العولمة المعاصرة استمرار الهيمنة بشعارات جديدة:

على الرغم من بدء المرحلة الأخيرة من مراحل تطور العولمة وفق ما ذهب إليه باحثون معاصرون، في مطلع الستينيات من القرن العشرين[١]؛ فإن الفترة الراهنة من عمر العولمة بتجلياتها الواضحة قد تبلورت بظهور النظام الدولي الجديد، وقيادة الولايات المتحدة له، وتوجهها لفرض هيمنتها على دول العالم بالقوة العسكرية حيناً، وبالاقتصادية آخر، وبكليهما معاً أحياناً أخرى، وأخذت تزين ممارساتها ضد الدول الأخرى الرافضة، أو المعارضة، لسياساتها، بدعوات تبشيرية ذات قوالب جديدة غير التي استعملت في العصر الحديث،أو في العصور الوسطى والقديمة، لكنها في مؤداها أساليب استعمارية لفرض الهيمنة على الشعوب الأخرى[٢]، مثل الدعوة للديمقراطية، ولاحترام حقوق الإنسان، وتخفيف القيود والحواجز الجمركية على التجارة، وإفساح المجال أمام التعددية السياسية والثقافية، واحترام التنوع الاثني والعرقي، وغير ذلك من الدعوات التي تهدف إلى إحلال نموذج الحياة الأمريكية ونمطها وأسلوبها على الشعوب الأخرى، وتفرض لتطبيق ذلك أنواعاً من العقوبات، مثل: المقاطعة، والحصار الاقتصادي والسياسي. وقد تلجأ إلى استخدام القوة العسكرية؛ لإخضاع الدول لإرادتها تحت غطاء دولي وأممي باسم الأمم المتحدة والشرعية الدولية.

ومع أن العولمة في الأصل اقتصادية، تقوم على إزالة الحواجز والحدود أمام حركة التجارة؛ لإتاحة حرية انتقال سلع ورأس مال الدول الداعية للعولمة، وخاصة أمريكا والدول الصناعية الكبرى معها[٣]؛ إلا أن العولمة المعاصرة لا تقتصر عليهما وحدهما، بل تتعداهما إلى الحياة الثقافية والاجتماعية، بما تتضمنانه من أنماط سلوكية، ومذاهب فكرية، ونفسية، تتعلق بالحرية الفردية للأشخاص، وبسيادة الدول واستقلالها؛ ولذلك تستشعر الكثير من تلك الدول -التي لم تصل إلى مرحلة القوة الاقتصادية- خطر العولمة على اقتصادها، واستقلالها، وهويتها الثقافية، وتبدي قلقها وتخوفها منها، ومن الأمثلة على ذلك:

(١) ياسين. في مفهوم العولمة، ص ١٠ – ١١. عبدالله، العرب والكوكبة، ص ٣٦٣.

(٢) يوسف وآخرون. العولمة الأمركة: رؤى ووهم، ص ٩٠ – ٩١.

(٣)الأسد. نحن والآخر، ص ١٢٥ – ١٢٦.

أ- العولمة واجهة الهيمنة الأمريكية المعاصرة:

تعني العولمة منذ دخولها مرحلتها الأخيرة بعد عام ١٩٩١م، باسم النظام الدولي الجديد- الأمركةَ بكل صورها وأشكالها، وترى أمريكا أنها المعنية في هذه الفترة بقيادة العالم كله لاستكمال نشر عناصر النظرية الرأسمالية ومفاهيمها الثقافية، والسياسية، والاقتصادية لصالحها وحدها[١]. وفي هذا الإطار يؤكد (هنري كيسنجر) وزير الخارجية الأمريكي الأسبق، وأحد مهندسي سياسة أمريكا الخارجية لعقود مضت- على معنى العولمة، وأنها ليست إلا الهيمنة الكاملة لأمريكا على العالم، وأنه لن تكون هناك عولمة اقتصادية ليبرالية وعسكرية إلا بقيادة واشنطن[٢]. ثم يكشف (كيسنجر) استراتيجية العولمة الأمريكية سياسياً وعسكرياً بأنها تقوم على مبادئ عدة، وترسخ بمجملها هيمنة أمريكا، وفرض سطوتها على العالم، وهذه المبادئ هي:

١. إحلال حلف الناتو (حلف الأطلسي) محل الأمم المتحدة، بصفتها مؤسسة مسؤولة عن إدارة السياسة العالمية وضمان السلام.

٢. تكريس التناقضات داخل أوروبا من أجل إخضاعها لواشنطن.

٣. استراتيجية عسكرية تبرز الميزة التي تستفيد منها الولايات المتحدة، وهي القصف الجوي، دون التعرض للحد الأدنى من الخطر، والامتناع عن إنزال قوات برية أمريكية، على أن تقوم القوات الأوروبية التابعة والمرؤوسة بهذه المهمة عند اللزوم.

٤. توظيف قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان لمصلحة الخطة الأمريكية كلما أتاحت الأحوال استخدامها، في خطاب موجه إلى الرأي العام، فالخطة السابقة هي استراتيجية أمريكا لأمركة العالم باسم العولمة؛ بحيث ينحى جانباً دور الكيانات الوطنية والقومية، وتتحول الدول القومية إلى ما يشبه سلطات محلية للنظام الكوني، وتصبح وظيفتها وظيفة البلديات داخل الدول في مرحلة ما قبل العولمة[٣].

---

(١) غندور، صبحي. "الأطروحة الأمريكية: الترهيب بصدام الحضارات، والترغيب بالعولمة"، في: كتاب سلسلة المعرفة (رقم٧)، ص٨٢-٨٣.

(٢) النشار، مصطفى. "ما بعد العولمة: قراءة في مستقبل التفاعل الحضاري"، في ندوة: التقاء الحضارات في عالم متغير، حوار أم صراع؟ تحرير: عُبادة كحيلة، ص ٣٧٤. المعوش. "مخاطر الهيمنة الثقافية"، ص٢٥.

(٣) النشار. "ما بعد العولمة"، مرجع سابق، ص٣٧٣-٣٧٤.

ب- حذر فرنسا واليونان الغزوَ العولمي الأمريكي:

أدركت بعض الدول الأوروبية خطر العولمة، ورأت أنها مرادفة للأمركة؛ ففرنسا التي تعد من أعرق الدول الأوروبية، ومن أقواها اقتصادياً- رفضت أن توقع على الجزء الخاص بالسلع والمواد الثقافية في اتفاقية الجات GATT، وكذلك اتخذت فرنسا واليونان موقفاً متحفظاً في المؤتمر الدولي للسياسات الثقافية الذي نظمته اليونسكو في المكسيك عام ١٩٨٢م، وندد ممثلا هاتين الدولتين بمواقف الولايات المتحدة الأمريكية التي تسعى لنشر ثقافتها باستعمال جميع الوسائل المتاحة ، واستعمل مندوبا فرنسا واليونان عبارة: الغزو الثقافي، وما قد ينجم عنه من تهديد الثقافة الوطنية، ومنظومة القيم في بلديهما. وإذا كان هذا هو موقف دولتين من الدول المتقدمة في العالم، ومن الدول ذات العراقة الحضارية؛ إذ إن فرنسا هي بلد النور والحرية -كما يقال عنها- واليونان مهد الحضارة والثقافة الإغريقية، ومع ذلك تخشيان الغزو الثقافي الأمريكي، وتتحفظان على الانفتاح نحو الأمركة -كما تسميانها- فكيف يكون موقف الأمم والشعوب التي لا تزال تتلمس طريقها نحو بناء الشخصية الوطنية اقتصادياً، وثقافياً، وسياسياً؟![1].

ج- عولمة الهيمنة بين سايكس بيكو وحرب احتلال العراق

صورتان بارزتان لهيمنة العولمة في القرن العشرين: الأولى: إتفاقية سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩١٥م، أثناء الحرب العالمية الأولى، لتقسيم بلاد الشام والعراق بين هاتين الدولتين الاستعماريتين. والثانية: الحرب على العراق عام ١٩٩١م، ثم ٢٠٠٣م.

وما يدعو لإيراد هذين الحدثين على التوالي وجود أكثر من رابط بينهما؛ من ذلك: أن هذين الحدثين قادهما تحالف دولي جاء على شاكلة الحملات الصليبية التي غزت العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري لأكثر من مئتي عام، ومن ذلك: أن اتفاقية (سايكس بيكو) بين فرنسا وبريطانيا جاء بتأييد أوروبي وروسي، والشيء ذاته فعلته الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩١م بالعدوان على العراق إثر دخوله الكويت؛ حيث حشدت أربعاً وثلاثين دولة من أنحاء العالم (منها العديد من الدول العربية) للمشاركة في شن الحرب على العراق. ومن ذلك: أن اتفاقية (سايكس بيكو) جاءت لاحتلال بلاد الشام والعراق، وهي ترفع الشعار الذي رفعته

(١) الأسد. نحن والآخر، ص ١٢٨ – ١٢٩.

الحملات الصليبية الأولى على العالم الإسلامي، من مثل: تحرير قبر المسيح في فلسطين من الكفار المسلمين، تحت ستار الدين، وحمل الصليب، وفق ما صرح به الجنرال (اللنبي) قائد القوات البريطانية حين دخل القدس محتلاً؛ حيث قال كلمته المشهورة: "الآن انتهت الحروب الصليبية"، وقال كلاماً قريباً منه قائد الجيش الفرنسي الجنرال (غورو) عندما دخل دمشق محتلاً أيضاً عام ١٩٢٠م، فقال وهو يقف بالقرب من قبر صلاح الدين الأيوبي هازم الصليبيين في حطين: "ها قد عدنا يا صلاح الدين!"[١]. أما ما استترت به الولايات المتحدة الأمريكية في حربها على العراق عام ١٩٩١م، فهو الشرعية الدولية، وحقوق الإنسان، ورد العدوان العراقي عن الكويت![٢].

إذاً القاسم المشترك الأول بين (سايكس بيكو) والحرب على العراق، هو إيجاد تحالف ضد العرب والمسلمين، والقاسم المشترك الثاني هو التحرير وحقوق الإنسان، والدفاع عن المظلومين، وتخليصهم من المعتدين، وفي كلتا الحربين كان الهدف الحقيقي هو الهيمنة السياسية والاقتصادية على البلاد العربية عن طريق الاحتلال المباشر؛ من أجل السيطرة على ثرواتها، ومواردها، والحصول على المغانم الاقتصادية[٣]، وإن هذا الموقف يذكّر بتكالب الدول الأوروبية على المسلمين في الحروب الصليبية في القرون الرابع والخامس والسادس الهجرية، ويؤكد هذا ما تفوه به الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن حين وصف حربه على العراق عام ٢٠٠٣م بأنها حملة صليبية جديدة[٤].

لكن ما يجعل الحروب الصليبية الأولى تختلف عن اتفاقية (سايكس بيكو) وعن حرب أمريكا وحلفائها على العراق عام ١٩٩١م، و٢٠٠٣م: هو أن الحملات الصليبية الأولى لم تتضمن اتفاقاً سابقاً بين قادتها على تقسيم البلاد العربية فيما بينها، وإن كانت تلك الحملات قد أقامت دويلات وإمارات في قلب بلاد الشام، لكنها ما لبثت بعد حين أن غادرت وتركت هذه البلاد، أما ما حدث في القرن العشرين، سواء في مطلعه بعد (سايكس بيكو)، أو في نهايته أثناء الحرب

(١) سلطان، علي. "تاريخ سورية (١٩٠٨ – ١٩١٨م)"، دار طلاس، ط٢، دمشق، ١٩٩٦م، ص ٤٩٦. سعيد، أمين. "الثورة العربية الكبرى"، نشر: مطبعة عيسى الحلبي، مصر، ١/ ٢٢٦.

(٢) الأسد. "نحن والآخر: صراع وحوار"، ص ٣٦ – ٣٧.

(٣) الأسد. المرجع السابق، ص ١٧ – ١٩.

(٤) صحيفة الرأي الأردنية، العدد ١٢٢٦٥، الثلاثاء ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٤م. وانظر: إمام. "في مواجهة العولمة"، ص١٤٣.

على العراق- فأمر مختلف؛ حيث اتفقت الدول المستعمرة في السنة الثانية للحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥م، وبتنسيق مع الدول الأخرى المشتركة معها في هذه الحرب، وهي روسيا، وإيطاليا- على تقسيم البلاد العربية بموجب اتفاقية (سايكس بيكو) عام ١٩١٥م، ومعاهدة بطرسبرغ الموقعة بين روسيا وفرنسا وبريطانيا في ٤ مارس آذار ١٩١٦م، والتي تحدد مناطق نفوذ كل من هذه الدول في أملاك الدولة العثمانية المنكسرة(١). وكانت سياسة الهيمنة هي النهج المتبع بين تلك الدول وفي الاتفاقات بينها، كما كان للجانب الاقتصادي الأثر الأكبر في السعي للسيطرة على هذه البلاد وتقسيمها، ولم تخرج منها إلا بعد كفاح عظيم من أهلها، وبعد ضمان استمرار المصالح الاقتصادية للدول المستعمرة لها، وخاصة النفط والثروات المعدنية الأخرى(٢). كما حرصت تلك الدول على فرض عولمتها الثقافية على البلاد العربية ، ونشر أنظمتها في الحكم، وفي القوانين، والدساتير التي تحكم هذه البلاد، كالتشريعات الجنائية، والأحوال الشخصية، وفي الحياة السياسية، والثقافية، وتركت فيها بصمات واضحة في اللغة، والثقافة، والحضارة، وأساليب الحياة(٣).

خامساً: تحديات العولمة الثقافية وسبل مواجهتها

تبين من خلال تعريف العولمة ونشأتها وتطورها أنها ليست موجهة فقط نحو مقاصد المال والاقتصاد، كما أنها ليست دعوة للتعاون الدولي على قدم المساواة والندّية بين كافة الشعوب وكافة الثقافات، بل هي دعوة إلى خلق عالم أحادي في كل شيء، تحت هيمنة وسيطرة القطب الأوحد في العالم -أمريكا- وسلاحها موجه في الأصل نحو عقل الإنسان؛ فهي غزو ثقافي بحت؛ لأنها موجهة لفكر الإنسان بفضل امتلاكها معرفة منظمة، ووسائل فاعلة لنشر هذه المعرفة(٤).

فالعولمة من هذه الزاوية تعبر عن سعيها لفرض وتسييد النمط الغربي ثقافياً، بمعنى محاولة تشكيل، العالم ومجتمعاته وإعادة تنظيمه على أسس جديدة، تخدم ثقافة أمريكا والغرب؛ باستخدام القوة، وإشاعة تعبير المعرفة، الحديثة عن قصد؛ للقضاء على كل ما هو قديم وأصيل؛ حتى يتم الانفصام بين المجتمعات غير الغربية وثقافاتها المتأصلة، ومن ثم المضي في مشروع

(١) سعيد. الثورة العربية الكبرى، ص ١٨١ - ١٨٨.
(٢) الأسد. نحن والآخر، صراع وحوار، ص ١٩ - ٢٠.
(٣) الأسد. المرجع السابق، ص ١٢٣.
(٤) إمام. في مواجهة العولمة، ص ١٣٨.

الغرب وأمريكا لطمس الهويات والقوميات المحلية؛ كي تفقد الثقافات غير الغربية استقلاليتها وشخصيتها الذاتية. والعولمة بهذا المعنى مصدر جديد للثقافة، في فنها، وأدبها، ومبادئها، بما يجعلها منظومة قيم وأسلوب حياة(١).

وهنا لا بد من بيان نقاط الالتقاء بين الغرب -ممثلاً بأوروبا- وأمريكا؛ فأوروبا تلتقي مع أمريكا في الجوانب الاقتصادية والمالية حول الهيمنة على مقدرات الشعوب الأخرى، لكنها في الوقت ذاته تتعامل بحذر في الجانب الثقافي؛ لتمسكها بخصوصيتها الثقافية؛ ولذلك تتوجس أوروبا من الهيمنة الثقافية لأمريكا على الرغم من التداخل الثقافي والقيمي الشديد بين هذين الحليفين؛ فما عدا بريطانيا التي تشكل اللغة الإنكليزية عاملاً ثقافياً بينها وبين الولايات المتحدة- فإن بقية دول المجموعة الأوروبية ما زالت ترى في ثقافتها ولغاتها خصوصية يجب أن تحافظ عليها، والشيء ذاته يندرج على اليابان التي تشكل الضلع الثالث للمثلث الاقتصادي مع أوروبا وأمريكا. ويلاحظ على هذه الدول الأوروبية وعلى اليابان أنها تدافع عن ثقافاتها على الرغم من عامل اللغة، وهو الإنكليزية الذي قد يجمعها مع أمريكا، ويظهر هذا التميز الثقافي والتمسك بالخصوصية في حديث (جوسبان) رئيس وزراء فرنسا الأسبق بأن تعاون بلده مع أمريكا لا يثني فرنسا عن الاستمرار في نشر لغتها وثقافتها، وإحياء فكرة الفرنكفونية(٢).

إذاً الهيمنة الثقافية هي أولى توجهات القوة العولمية التي ينصب جهدها على نفي الآخر، وإحلال الاختراق الثقافي محل الصراع الأيديولوجي، ومن ثمَّ إقصاء الخصوصي، واحتواء العالم؛ بغية تحويله إلى محطة ثقافية لثقافة عامة، وفق نمط اغتصابي يفرض أحاديته على دول العالم التي يجب أن تخضع له(٣)، أي: استئصال القيم الثقافية المنافسة للرأسمالية الغربية تذرعاً بمفهوم صدام الحضارات، ابتداءاً بالشيوعية، وانتهاء بالحضارة الإسلامية(٤).

ومن هنا فإن التحدي الحضاري والثقافي الذي يواجه أمتنا، هو في حقيقته عدوان على الهوية الثقافية، هذه الهوية المستمدة من عقيدة الأمة الإسلامية وحضارتها. وما يحمل على التصدي

---

(١) التوم وآدم. العولمة: دراسة تحليلية نقدية، ص ١٣٠. خطّاب. أزمة الإنسان العربي المعاصر في ضوء إشكاليات الانفتاح والعولمة، ص ١١٦.

(٢) حارب، سعيد. الثقافة والعولمة، ص ٢٠ – ٢١.

(٣) بلقزيز، العولمة والهوية الثقافية، في ندوة: العرب والعولمة، ص ٣١٨. المعوش. مخاطر الهيمنة الثقافية، ص ٢٤. إمام. في مواجهة العولمة، ص ١٧٠ -١٧١.

(٤) التوم وآدم. العولمة: دراسة تحليلية نقدية، ص ١٣٠ – ١٣١.

لتحدي العولمة ومواجهتها: مساسها بهوية الأمة وقيمها الأخلاقية، وبتراثها الحضاري، فأمتنا لها استقلاليتها وثقافتها الحضارية، وإن التأكيد على هويتها المتميزة لا يعني بحال من الأحوال رفض الآخر أو العداء له، أو الرغبة في إقصائه، كما يفعل دعاة العولمة، إنما هي الرغبة الطبيعية في الحفاظ على الشخصية الثقافية لأمتنا، والتعاون مع الأمم الأخرى[1]، والتلاقح مع الثقافات المختلفة، انطلاقاً من أصل من أصول الإسلام يقوم على التعاون بالعدل مع الجميع: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]؛ ولذلك لا بد من العمل على:

١. بث الوعي الثقافي بين فئات الأمة وأفرادها، وتعريفهم بالعولمة، ومقاصدها، وظواهرها، وإيجابياتها، وسلبياتها، وبآثارها الحاضرة والمستقبلية؛ لأن العولمة الثقافية كما وصفها (تشرشل) -وهو يتحدث عن إمبراطوريات الغد- أنها إمبراطوريات الفكر، وكما قالت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة (مادلين أولبرايت)- وهي تتحدث عن بعض المؤسسات الإعلامية مثل (CNN) -أنها العضو السادس في مجلس الأمن![2] في إشارة صريحة إلى هيمنة ثقافة أمريكا وإعلامها على العالم.

٢. إعداد شباب الأمة وأجيالها الحاضرة إعداداً تربوياً صحيحاً يقوم على الفهم للواقع المعاصر وثقافته ومتطلباته، وعلى الركائز الثقافية للأمة المبنية على العقيدة الإسلامية الصافية المتميزة التي تقبل بتمازج الحضارات والثقافات، وترفض الذوبان والتبعية للآخر، وخاصة ثقافة العولمة الغربية.

٣. التركيز على المناهج التربوية والتعليمية التي تعد مناهل تربية الأجيال، ولا سيما اللغة العربية، والتربية الإسلامية، والتاريخ، بوصفها عناصر رئيسة لبناء الشخصية العربية الإسلامية، ومصدر مناعة ثقافية، وحصانة فكرية ضد الثقافات الوافدة.

٤. تثقيف المجتمع، وتربية أفراد الأمة على ثقافة الحوار بين الحضارات، والتنوع في الثقافات، مع الحفاظ على ثقافتنا المستمدة من هويتنا وعروبتنا وقيمنا الإسلامية.

٥. الاهتمام بقضايا العالم المعاصر، مثل: حقوق الإنسان، والديمقراطية، والتعددية السياسية، وحرية التعبير، والدفاع عن كرامة الإنسان، والانطلاق في التعامل مع هذه القيم من أصولها النابعة من تراثنا وحضارتنا، بما يخدم أمتنا، ويزيد من ارتقاء مجتمعاتنا، والحوار مع الآخر حول المشترك الإنساني الذي يجمعنا به حول هذه المفاهيم والقيم.

---

(١) إمام. في مواجهة العولمة، ص ١٤٢ – ١٤٣.

(٢) المعوش. مخاطر العولمة الثقافية، ص ٣٣ – ٣٤.

خاتمـــة

تناولت هذا البحث ظاهرة العولمة؛ لأنها من أكثر القضايا الفكرية المعاصرة أهمية؛ نظراً لامتداداتها، وانعكاس إيجابياتها وسلبياتها وآثارها على القيم الاجتماعية والثقافية، والنظم الاقتصادية والسياسية للمجتمعات والدول، وسعيها للاختراق الثقافي، وفرض سيطرتها وهيمنتها على الأمم والشعوب في ظل النظام الدولي الجديد، حتى أصبحت العولمة الاسم الحركي والرديف للأمركة، وباتت قوى السوق العالمية، أو الشركات المتعددة الجنسيات أعتى قوةً وأكثر جبروتاً من كثير من الدول، وأصبح أصحاب رأس المال السلطة الفعلية لرسم السياسات المحققة لمصالحهم، ولم يعد أمام الدول القومية إلا أن تكون شبيهاً بالسلطات المحلية للنظام الكوني العولمي.

على أن جوهر الخطر في العولمة هو العولمة الثقافية؛ لأن الغزو الثقافي للعولمة هو أهم أهدافها، أراده المستعمرون عبر التاريخ وسيلة لفرض رؤاهم وآرائهم ومعتقداتهم على الشعوب المغلوبة، وأرادوه في العصر الحديث لمواجهة الحضارة الإسلامية وتدميرها، كما سعى دعاة العولمة الجدد لفرض ثقافتهم على أمتنا بعد تفرد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة النظام الدولي الجديد، انطلاقاً من فرضيات نهاية التاريخ، وصراع الحضارات التي يؤمن بها اليمينيون الجدد في أمريكا، ويوجهون السياسة الأمريكية لفرضها على العالم تحت مظلة العولمة، فيما بات يعرف بالأمركة.

لهذا كانت دراسة هذه الظاهرة من زواياها المتعددة، ووضع تصورات تسهم في التخفيف من آثارها السلبية، ومن تداعياتها على أمتنا، وخاصة في المجال الثقافي، وتساعد في إيقاظ موات النفوس، أمراً في غاية الأهمية؛ لإيقاظ أمتنا، وإنهاضها للخروج من الوهدة الحضارية التي تعيشها في حاضرها، والانطلاق نحو المستقبل بروح واثبة قادرة على مواكبة العصر والتفاعل معه؛ لتأخذ موقعها من جديد في الريادة والإبداع بين الأمم الأخرى.